من تراب الطريق ! (٦٨٧) « وكذلك اليوم تُنسى » (*)

توقفت طويلاً ، وتأملت أطول ، وأنا أعيد تلاوة الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦ من سورة طه ، وتمعنت فى قول الحق ـ عز وجل ـ فيها :

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى » (سورة طه الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦)

ننسى فى خضم اندفاعاتنا فى رحلة الحياة ، أن ما نلقاه فيها هو فى الأصل لقاء ما أعطيناه ، فيما عدا ما قد تجود به الحظوظ أو المقادير .. ويبدو أن هذه « الجودة » التى تأتينا من وقت لآخر حظًّا أو تقديرًا لا يد لنا فيه ، تغمر عواطفنا وتصرفنا عن التفطن إلى القانون الكونى الأزلى الذى يوازن بين العمل أو العطاء وبين الناتج أو الثمرة .. واستمرار اللا تفطن ينحفر حتى يتحول إلى آفة النسيان التى تنحر بدورها من التبصر فضلا عن التفطن!

ومما جُبل عليه الآدمى ، أن ينسى نعم ربه التى تغمره من ميلاده ولا تزال تغمره حتى وفاته ، لذلك كانت الدعوة إلى « ذكر الله » وكان قوله فى كتابه المجيد « وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ » (سورة العنكبوت الآية ٤٥) .. هو أكبر

(*) المال فى ٢٠١٤/٢/٢٠

لأنه الذى يوقظ الانتباه إلى المثل الأعلى ـ عز وجل ـ والعرفان به ، والتزام طريقه وحبله .. والآيات الثلاث التى توقفت أمامها طويلاً من سورة طه ، قد جمعت من الدلالات والمعانى ما يوقظ الإنسان من سباته ومن نسيانه الغارق فى شرنقة الاعتياد الذى يصرفه عن نِعَم ما يفيض به ربه عليه ، فيعرض عن ذكره ولا يلتفت إلى أن إعراضه تفريط فى حق نفسه فضلاً عن تفريطه غير المغفور فى حق ربه . هذا التفريط يتراكم ويتغلغل فيه حتى يصيبه بعماء قد يغفل عنه ولا يتفطن إليه فيمعن فيما هو فيه من غىٍّ مرده إلى ابتعاده عن ربه .. فكان جزاؤه يوم القيامة من جنس عمله ، فيحشر أعمى ، ولا يدرك لماذا قد حُشر يوم الحشر أعمى مع أنه كان فى الدنيا بصيرًا : مع أنه بصر كالعماء ، محكوم بشرنقة الاعتياد التى يتحول بها الإبصار إلى مجرد رؤية مناظر أو وقائع أو أحداث دون التمعن فيها واستبصارها والتفطن إلى مغزاها ودلالاتها واستخلاص عبرتها .. فَيُقَال له ـ تذكرةً للأحياء فى الدنيا ـ« كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى » (سورة طه الآية ١٢٦)

تذكر آيات الله ، ليس مجرد ترديد باللسان ، ولا قراءة كقراءة الببغاء ، وإنما هى عبادة صامتة متفطنة ، تتأمل فى عرفان فيوض هذه الآيات ، بنعمها وما تدلى به إلينا وإلى غيرنا من معانى التوحيد والعرفان والخشوع والإخبات ، ومن صدوع لخالقها ومبدعها الذى أنعم ـ عز وجل ـ بها علينا

لم أجد عاصمًا من آفة النسيان وحصار شرانق الاعتياد والانصراف عن التفطن إلى معنى الحياة ، من « ذكر الله » .. هذا الذكر استحضار واع لعظمة الله سبحانه ، وإقرار صادع بربوبته ، واستلهام لقدرته ، وانصراف كامل

لطاعته والإخبات له . هذا الاستحضار دائم يغمر القلب والضمير والوجدان ، فى ديمومته لا تقطعه احتياجات ولا شواغل ولا مصالح ولا هموم ولا أغراض .. هذا الذكر الذى حضت عليه الكتب السماوية ـ و خاصة القرآن الحكيم ـ ودعا إليه الأنبياء والرسل ، يأخذ الذاكر إلى ملكوت الله وإلى أنوار ربوبيته وجلاله وعظمته وقدرته وهيمنته ، وإلى وحدانيته ورحمته وعدله وجوده وكرمه .. يتلاقى في هذا الذكر القلب واللسان والضمير والوجدان وشتى الجوارح التى يستغرقها الذكر فتحلق به فى الآفاق العلوية وأنوار الإيمان ولآلئ اليقين .. فيتحقق للذاكر الخشوع القانت لعظمة رب العالمين المتجلية فى كونه هذا العظيم .

الذاكر المدرك أن ذكر الله أكبر ، لا تلهيه تجارة ولا بيع ولا مال ولا جاه ولا نفوذ ـ عن ذكر الله ـ عز وجل .. ولا يصرفه عن ذكر ربه شاغل من شواغل الدنيا ، ولا يلهيه عنه عارض ولا خاطر .

فى القرآن المجيد : « وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » (سورة الكهف الآية ٢٤).. ذكر الله بتذكره واستحضاره بربوبيته وعظمته وجلاله وجماله وكماله استحضارًا تتضاءل أمامه كل مغريات الدنيا، ويتفتح به للذاكر بديع صنعه سبحانه وأسرار خلقه وعجائب سمواته وأرضينه . به يتصل الذاكر بالكون وبدائعه وأسراره بما فيه من إتقان وإبداع خالقه ، وما يحفل به من نعم سابغة دالة على حكمته البالغة وقدرته النافذة ورعايته ـ جل شأنه ـ لمخلوقاته .

والله ـ تبارك وتعالى ـ يذكر من يذكره ، ويلبى دعاء من يلوذ به ، فيقول فى كتابه المجيد : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ » (سورة البقرة الآية ١٥٢) ، وبه أمرنا سبحانه فقال :

« فَاذْكُرُواْ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ » (سورة النساء الآية ١٠٣)، « وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ » (سورة الأعراف الآية ٢٠٥) ، وبه وصف سبحانه المؤمنين من عباده وكيف بذكره تطمئن قلوبهم ، فقال فيهم: « الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهَ أَلاَ بِذِكْرِ اللهَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (سورة الرعد الآية ٢٨) .. هم الموعودون فى الآيات الكريمة ووعده حق:« وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » (سورة الأحزاب الآية ٣٥) .

* * *